أدب المجالسة وحمد اللسان

وفضل البيان وذم العيِّ وتعليم الإعراب وغير ذلــك

تأليــف

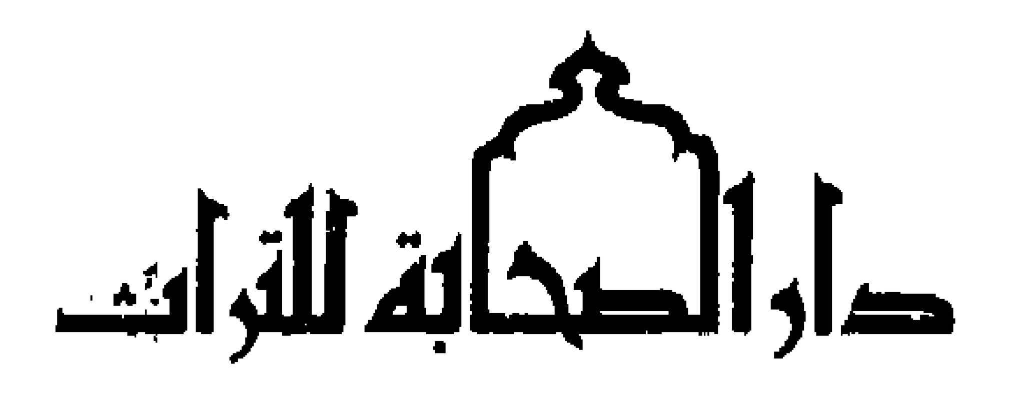
الحافظ أبى عمر يوسف بن عبد الله

المعــروف

بابن عبد البر المتوفى سنه ٤٦٣ هـ

تحقيق ودراســة

سـمير حلبى



للنشر والتحقيق والتوزيع

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب

المقـدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾

الحمد لله الذي جعل القرآن هدى وشفاء للقلوب ، وبرّاً ورحمة لكل مكروب ، ورضا وسكينة للنفوس ، وأنيساً وسميراً لكل جليس .

والصلاة والسلام على خير الأنام ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، نبي الرحمة والوئام ، وعلى آله وصحبه البررة الكرام ، ومن اتبعهم بالفضل إلى يوم الفصل .

أمَّا بعد :

فإن الإسلام – وهو خاتم الديانات ، ومتمم الرسالات – قد جاء كاملاً متكاملاً ، فهو لم يترك أمراً من أمور الحياة إلّا ووضع له الأطُر ، والمعايير التي تكفل للمسلمين الخير والسعادة في نهجها وسلوكها ، وهو بذلك يحفظ الدين ، ويحمي المؤمنين.

وقد عني الإسلام أشد العناية بإرساء جانب العقيدة الذي يحفظ للمسلم التوازن النفسي والروحي ، مما يحقق له السعادة .

كما اهتم أيضاً بتحديد جانب المعاملات الذي ينظم علاقة المسلم بخالقه من ناحية ، وعلاقته بإخوانه من ناحية أخرى .

كل ذلك في إطار من القواعد الشرعية الدقيقة التي تيسر له سبل التعامل ،

والتعايش في الحياة .

ومما اهتم به الإسلام الجانب الاجتماعي الذي يربط بين أفراد المجتمع الإسلامي ، وتلك العلاقات التي تنشأ بين أفراده .

فوضع لها القوانين التي تنظمها كالزواج والطلاق والبيوع وغيرها ، ولأن الإنسان بطبعه مخلوق اجتماعي فقد جُبل على حب الجماعة والألفة بالناس ، ومن ثَمَّ فقد عقد المجالس والندوات في الدور والأسواق ، يأمها محبو العلم وعاشقو الأدب ، يجدون فيها المتعة والتسلية من عناء يوم شاق حافل بالنصب والعناء .

ولم يلبث الإنسان أن شعر بحاجته إلى مجالس الحكم التي يصلح فيها أمر متخاصمين ، أو يقضى بين متنازعين ؛ فنشأت دور للحكم والقضاء ، يجلس فيها السادة والأشراف ؛ ليتباحثوا أمور مجتمعاتهم ، ويتناولوا مشكلات قومهم .

وقد عرف المجتمع العربي القديم عدداً من تلك المجالس والدور ، كدار الندوة ، وشهدت أسواق العرب الشهيرة كسوق عكاظ ، وذي المجاز عدداً من مجالس العلم والأدب ، ومساجلات الأدباء والشعراء كما تروي المصادر القديمة .

وظل العربي شغوفاً بالمجالس ، يأمها ويحرص على السعي إليها ، وكانت مجالس العامة بالأسواق أو على الطرقات ، ولم تختص بالدور إلا مجالس الخاصة والكبراء .

وحينما جاء الإسلام كانت تلك هي صورة مجالس العرب ، فوجه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المسلمين إلى المساجد ليعقدوا فيها مجالسهم ،

ونهى عن الجلوس في الأسواق والطرقات .

روي عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال :

« **إياكم والجلوس على الطرقات** » .

قالوا : ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها .

قال : « **فإذا أبيتم إلّا المجالس فأعطوا الطريق حقها** » .

قالوا : وما حق الطريق ؟

قال : « **غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر** »(١) .

ووضع الإسلام التصور الإسلامي للمجلس ، وهو تصور ينم عن رقي الإسلام وتمدينه ، فهو مجلس لا يكثر فيه اللغط وفضول الكلام ، يمتثل فيه المسلمون لآداب الاستماع .

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال :

« **مَا تَجَالَس قومٌ مَجلساً فَلَمْ يُنْصِتْ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ ، إلَّا نُزِعَ مِنَ ذلِكَ المَجْلِسِ الْبَرَكَةُ** »(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري : [مظالم – ٢٣] ، [استئذان – ٢] .
ورواه بنحوه أبو داود : [أدب – ١٢] .
ورُوى قريباً من هذا المعنى عن البراء :
رواه الترمذي وحسنه : [استئذان – ٣٠] ، والدارمي [استئذان – ٢٦] ، وأحمد : [٣/٣٦] .

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الكبير : [رقم – ١٨٦٧١] .
وعزاه للبيهقي وابن عساكر عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً وهو حديث ضعيف .

وللمجلس آداب يحددها الإسلام ويحث على التحلي بها وإحيائها ، فعلى الوافد إلى المجلس أن يجلس حيث انتهى به المجلس .

روي عن جابر بن سمرة قال :

« كنا إذا أتينا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جلس أحدنا حيث ينتهي »[٣] .

وعلى المسلم أن يفسح لأخيه مكاناً في المجلس إذا قدم عليه .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافسَحُوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ ﴾[٤].

فخير المجالس أوسعها ، كما روي عن أبي سعيد الخدري . قال :

---

(٣) رواه أبو داود : [٤٨٢٥] والترمذي [٢٧٢٦] وقال : حسن غريب .

(٤) من الآية (١١) : سورة المجادلة .

ويقول الطبري في تفسيره [١٧/٢٨] :

« واختلف أهل التأويل في المجلس الذي أمر الله المؤمنين بالتفسح فيه ، فقال بعضهم : ذلك كان مجلس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاصة » . اهـ .

وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك .

وقال ابن دريد :

« هذا مجلس رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان الرجل يأتي فيقول : افسحوا لي رحمكم الله ، فيضن كل أحد منهم بقربه من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأمرهم الله بذلك ، ورأى أنه خير لهم » اهـ .

وقال ابن عباس وغيره :

« بل عُنى بذلك في مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب » اهـ .

والأول عندي هو الوجه ، وإن كان يفهم من الآية الإطلاق والعموم على كل مجلس يجمع طائفة من المؤمنين .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول :

« **خَيرُ المَجَالِسِ أوسَعُهَا** »(٥).

ومن آداب المجلس ألَّا يتخطى الوافد إلى المجلس رقاب الجلوس ليجلس وسط الحلقة .

فقد روي عن حذيفة ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعن من جلس وسط الحلقة(٦) .

ويضرب لنا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثلاً في ذلك ، فقد روي عن أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وذهب واحد ، فلما وقفا على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأمّا الآخر فجلس خلفهم ، وأمّا الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال :

« **أَلاَ أُخبِركُمْ عنِ النَّفَرِ الثَّلَاثة ؟ أَمَّا أَحَدُهُم فَأَوَى إِلَى الله فَآوَاه الله ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاستَحْيَا فاستَحْيَا الله مِنْهُ ، وَأَمَّا الثَّالِث فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عَنْهُ** »(٧).

ومن آداب المجلس أن يبتعد عن اللغو ، وأن يكثر فيه ذكر الله تعالى ،

---

(٥) رواه أبو داود : [٤٨٢٠] والبخاري في « الأدب المفرد » وصححه الألباني في الصحيحة (٨٣٢) .

(٦) رواه أبو داود : [٤٨٢٦] والترمذي (٢٧٥٤) وقال : حسن صحيح .

(٧) أخرجه البخاري : [علم – ٨] ، ومالك في الموطأ : [سلام – ٤] .

فقد روي عن أبي هريرة وأبي سعيد – رضي الله عنهما – أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال :

« **مَا جَلَسَ قَومٌ مَجلِساً يَذكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلّا حَفَّتْهُم المَلَائِكَةُ ، وَتَغَشَّتْ الرَّحْمَةُ ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُم اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه** »(٨)

وروي عن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال :

« **مَا جَلَسَ قَومٌ مَجلِساً لَمْ يَذكُرُوا اللهَ فِيهِ ، وَلِمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِم كَانَ عَليهُم ترةٌ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُم ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ** »(٩) .

وهو مجلس يسوده الحب والإخاء ، فقد روي عن النبي صلى الله ع وعلى آله وسلم أنه قال :

« **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلمُتَحَابِينَ فِيَّ ، وَالمُتَجَالِس فِيَّ ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ** »(١٠) .

ويجب على المسلم أن يختار جليسه ، وأن يتجنب أهل البدع والأهوا ويبتعد عن مجالسة أصحاب العقائد الفاسدة ، لأنهم ضالون مضلون .

---

(٨) رواه ابن ماجه : [أدب – ٥٣] .
وذكره السيوطي في (الجامع الكبير) : رقم [١٨٧٣٧] بلفظ :
« **ما جلس قوم مسلمون** » ، وعزاه لابن أبي شيبة ، وابن حبان ، وابن شاهين في التر في الذكر وقال : حسن صحيح » .
والحديث في (الإحسان إلى تقريب صحيح ابن حبان) : [١٥٣/٢] – رقم (٨٤٣ .
وكشف الخفاء : [٤١٧/٢] .

(٩) ذكره السيوطي في (الجامع الكبير) : رقم (١٨٧٣٢) ، وعزاه للترمذي عن أبي هر ورمز له بالحسن .

(١٠) حديث صحيح . أخرجه مالك في الموطأ : [شعر – ١٦] عن معاذ بن جبل وقال الح على شرط الشيخين ، وقال ابن عبد البر : هذا إسناد صحيح .

فقد روي عن أبي هريرة عن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال :

« **لاَ تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ ، وَلَا تُفَاتِحُوهُم الحَدِيثَ** »[١١].

ويضرب لنا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم المثل في ذلك ، فيما يُروى عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

« **مَثُلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والَجلِيسِ السُّوءِ ، كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ ، وَكِيرِالْحَدَّادِ ، لَا يَعدِمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إمَّا أَنْ تَشتَرِيَهُ ، أَوْ تَجِدَ رِيحَهُ ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يَحرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنهُ رِيحاً خَبِيثَةً** »[١٢] .

وهكذا نجد الإسلام يولي المجلس عناية شديدة ، لما له من الأثر الجليل في المجتمع ، بما ينشره فيه من عقائد وعادات ، وما يبثه بين أفراده من أفكار وسلوكيات .

سمير حسين حلبي

(١١) رواه أبو داود : [سنة – ١٦ ، ١٧] وأحمد والحاكم عن عمر بسندٍ ضعيف .

(١٢) أخرجه البخاري : [بيوع – ٣٨]،[ذبائح – ٣١] .

فهـرس الموضوعـات